محاولات في درس جبران

الجوهر الفرد

في ادب جبران خليل جبران

بقلم امين خالد

٣

تعاليم آمنة العلوية

فما هي تلك الاسرار ؟ وما هي تعاليم آمنة العلوية بهذا الصدد ؟ ؟

ان حكمة آمنة العلويّة ، او بالاحرى آمنة الجبرانيّة ، التي تخيّل المؤلف انها « تدخل وتقف امام الرجلين وهي بهيئتها وحركاتها وملابسها اقرب الى معبودات الشعوب الغابرة منها الى امرأة شرقيّة في الزمن الحاضر ... ومن الصعوبات تحديد عمرها بمجرد النظر الى ملامحها فكأنّ الشباب في وجهها يستر الف سنة من المعرفة والاختبار . واما نجيب وزين عبد العابدين فيظلّان جامدين خاشعين متهيبين كأنهما بحضرة نبي من انبياء الله »[1] . ان تعليم آمنة الجبرانيّة الذي تمليه على الاديب العالمي نجيب رحمه والدرويش الصوفي زين العابدين يوازي الف سنة من المعرفة والاختبار » لانه كامن في جسد له من نضارة الشباب وبالنتيجة من غضاضة اللحم ما يذهل « الرجلين الماثلين امام الشبح المشروقي ويدعهما خاشعين متهيبين كأنهما في حضرة نبي من انبياء الله ».

ان فلسفة آمنة العلويّة تؤيد وتؤكد ما جاء في « الاجنحة المتكسرة » من التأثر بجسم حواء العارية واعتبار الجنة في حبها.

واليكم شرحَ العلويّة نفسها :

---

(١) ارم ذات العماد — في مجموعة الرابطة القلمية لسنة ١٩٢١ — نيويورك — ص ٢٥٧

«ليس ما نراه على الأرض وما لا نراه سوى حالات روحية . وانا قد دخلت المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ، ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي . ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين. انما الزهرة وعطرها شيء واحد.»

قد يتراءى لاوّل وهلة، عند تلاوة مثل هذه الجمل الطنّانة، ان جبران روحي؛ او ان آمنة العلويّة من المؤمنات بدروس الغزالي في كتابه «احياء علوم الدين». ولكن: «أليس من الواضح ان آمنة تدغم الروح والجسد احدهما بالآخر؟ فهي تجعل كل شيء روحياً ، ولكن لنتأمل في قولها «ليس ما نراه على الارض وما لا نراه سوى حالات روحية . . . » يتبين لنا ان لا اثر في كلام آمنة العلويّة الّا للارض فقد قالت « ليس ما نراه على الارض . . . » فلم تتطرّق الى ما وراء الطبيعة لتحكي عن السماء مثلاً كما يعتقد الروحيون من المتدينين . ومن ثمّ فهي تتكلّم عمّا تعلمه بنفسها اي بغير واسطة الوحي الديني والكتب السماوية وهذا ضدّ تفسير الغزالي للآية « وآتيناه من لدنّا علماً» وللآية الاخرى « ربّ زدني علماً » حيث يفهم ان المعرفة مصدرها العليم الخبير الذي يحيي العظام وهي رميم اذا امر الروح ان تدبّ بهذه العظام ليبثها للحياة مرة اخرى بارادته وتدبيره . اما آمنة فتحدّث عن تجربة وتشرح ما شعرت به في تجربتها الذاتية فتقول : « انا قد دخلت المدينة المحجوبة بجسدي وهو روحي الظاهرة ، ودخلتها بروحي وهي جسدي الخفي . ومن يحاول التفريق بين ذرات الجسد كان في ضلال مبين.»

او ليس في هذا الجزم بادغام الجسد بالروح انكار لنظرية الموت والبعث حسب رأي الروحيين القدماء الذين يفهمون بالموت انه انفصال الروح عن الجسد وعرضها على الديّان لاداء الحساب على اعمالها . ولكن آمنة العلوية — بخلاف الروحيين الذين يرون ان الروح هي ضيف الجسد يجب ان تكون سيدة حاصلة على الاعزاز والاكرام لكي تخرج منه هانئة سعيدة بعد ان تستعبده بواجباتها من صيام وتقشف وما الى ذلك من وسائل العبادة الخ. . . — آمنة العلوية تريد ان تؤدي الى الجسد كل الخدمات الواجبة للروح لانها بنظرها جوهر واحد . الروحيون يهيمون بحب الروح التي ينتسبون اليها وآمنة العلوية ، او

صورة عشتروت ،تؤله الجسد بوضعها اياه في منزلة الروح. وتزيد فكرتها وضوحاً بمثل الزهرة المنتخب اذ تقول : « انما الزهرة وعطرها شيء واحد. »

ولماذا اختارت الزهرة لتشبه الجسد بها والروح بعطرها ؟ ذلك ان الزهرة هي ابهى منظر رائع من مظاهر الطبيعة الخلّاب ، والجسد او الروح المحبوبة ، غاية كل اعزاز وخدمة وتقديس ، هو كالزهرة بجماله وسحره. واما عطر هذه الزهرة او رائحتها الزكيّة المنعشة فهي ميول الجسد نفسه للانبساط والانشراح التام ، وهي بالنهاية الرغبة والشهوة الطيبة.

اجل ! هذا الجسد المقدّس وشهواته اللذيذة هما الكيان الذي لا يجزّئ عناصره وذراته الّا من « كان في ضلال مبين » فهو بكامل خلاياه من طلعة الوجنتين حتى مشط القدمين شيء جميل كالزهرة ورائحته لذيذة كالمطر ولذلك هو مقدّس «بالمدينة المحجوبة » ، اي مدار الاحلام الفلسفية التي دعوها « ارم ذات العماد »

وهذا هو الجوهر الجبراني الفرد المتلألئ من خلال زفرة الشاعر ، الواضح في بحث الفيلسوف.

عهد النضج الجبراني

نبالهم « النبي » — جبران والصوفية

ولنحك الآن المدن الذي انجمته قريحة جبران في عهد النضج الاخير بفتحنا سفر البشارة الجبرانيّة وقراءة شيء ممّا يتلوه المؤمنون بجبران في الغرب في كنائسهم وانديتهم.

ولاول وهلة نرى «المصطفى المختار الحبيب»،نخبة معلمي الانسانيّة العظام ، يقف هنيهة رهيبة في لوعتها ، مقدسة في هولها ،تستولي على عواطفه قبيل الوداع، فيقول في نفسه :

« ايكون يوم الفراق يوم الاجتماع ؟
ام يجري على الافواه ان ماني كان فجرًا لي ؟

وماذا يجدر بي ان اقدم للفلاح الذي ترك سكته في نصف ثلمه ، وللكرّام الذي اوقف دولاب معصرته ؟ »

يتمنى المصطفى مبادلته القوم لقاء اريحيتهم بما يوازي اهتمامهم بشأنه فما هي العملة التي يعوّض عليهم بها ؟ ومن اي راسمال ينفق ليقوم بواجب وفائهم ؟ انه يفكر فوراً بالجوهر الفرد عنده ويتمّ كلامه قائلاً :

« ايتحوّل قلبي الى شجرة كثيرة الاثمار فاقطف منها واعطيهم ؟
« ام تفيض رغباتي كالينبوع فاملأ كؤوسهم ؟
« هل انا قيثارة فتلامسني يد القدير ، ام انا مزمار فتمرُّ بي انفاسه ؟
« اجل ! انني هائم انشد السكينة ، ولكن ما هو البكتر الذي وجدته في السكينة لكي اوزّعه بطمأنينة ؟ . . .
« قال هذا معبراً عنه بالالفاظ . ولكن كثيراً مثل هذا حفظه في قلبه من غير ان يعلنه لانه هو نفسه لم يقدر ان يوضح سرّه العميق » (١) .

هوذا القلب الجبراني « المملوء بالاسرار والعجائب » بالرغبات الغزيرة والشهوات القوية . ولكن لصاحب هذا القلب « الذي لا يقدر ان يوضح سرّه العميق » وقار الانبياء ورصانة المبشرين .

ورغم هذه الطهارة النبوّية وشدة اندفاع المصطفى لاداء رسالته القلبية لم يقدر على الافصاح عن شيء من خفايا فؤاده قبل ان تتحرك بين احشائه العاطفة الجليلة .

ومن يا ترى ينبش تلك الخفايا ؟ وما هي تلك العاطفة الجليلة ؟ اقوّةٌ روحية تدبُّ بعزيمته ليمزّق حجب العجز والعي ؟ ام وحي تأتيه به آلهة السماء من عالم الغيب ؟ ام عقلٌ يفكر بشريعة يسنُّها للبشر ؟

كلّا ! لا شيء من هذا البتة ! فقد جاء اليه الكثيرون متوسلين متضرعين . فلم يردَّ على احد جواباً . ولكنه كان يحني رأسه ؛ وكان الواقفون حوله ينظرون عبراته تتساقط بغزارة على وجنتيه وصدره .

وظلّ يمشي مع الشعب حتى وصلوا الى الساحة الكبرى امام الهيكل .

وفي تلك الساحة وجد مفتاح الخزينة التي ادّخر بها اسراره وخفاياه ؛ في

(١) النبي ، ص ١٥–١٧ .

تلك الساحة لاقى مصدر القوة ، وامّ الوحي ، وسرّ الفهم ؛ وفي تلك الساحة تجلّت له المرأة المرّافة ألمطرة « فنظر اليها نظرةً ملؤها الحب والحنان . . . »[1]

وباشارتها بدأ النبي المختار يُملي تعاليمه على الملأ المزدحم حول « الرسول الحبيب » . وقد كانت ألمطرة اول من آمن ببشارته القلبية وآخر من بقي « على شاطئ البحر تردّد في قلبها كلمات المصطفى الاخيرة :

« قليلًا ولا تروني وقليلًا وتروني »

« لان امرأة اخرى ستلدني »[2]

لتشاركه في الشعور بما في هذه الآية من الخفقان والامل واليقين الثابت بسرّ المرأة الذي يولد الانبياء كما يعلم الفلاسفة ويطرب الشعراء . وهكذا فالالف واليا في كتاب « النبي » هي المرأة . لان جبران لا يزال يبشّر بذات الدين القلبي النسوي الذي شرحت مبدأه الفلسفي آمنة العلويّة ؛ وافهمت كنهه حوّاء جبران ، سلمى كرامة .

. . .

والآن ، في حضرة جبران النبي الجليل ، لنتبسّط قليلًا باحثين في تعاليمه الاساسية التي اعتنى بها رسول الغرب الى الشرق والعالم ، وليس كما قيل عنه « رسول الشرق الى الغرب »

ان فلسفة جبران تلخّص الروح العصرية والادب الغربي بلغة شرقية في شدة لهجتها ، دينيّة في تعابيرها ، بدنيّة في مراميها .

وبهذه المناسبة اذكر بشديد الاستهجان آراء بعض المفكّرين الذين حشروا جبران في زمرة الصوفيين دون تدقيق بالجوهر الاصلي الصوفي او الجبراني .

نعم ، يلتقي الصوفي والجبراني على مسرح واحد ، هو مسرح القلب . ولكن على هذا المسرح نفسه يختلفان في الوجهة والميل . وكلّما بحثنا عند الواحد منهما عن نقطة والتفتنا الى الآخر اتّسع مجال التباين والمغايرة . فقلبُ الصوفي الحقيقي

---

١) النبي ، ص ١٨-١٩

٢) النبي ، ص ١١٩

طافحٌ بالايمان بالله وكماله وملائكته ورسله وتفاسيرهم المفعمة ؛ وقلبُ جبران لا يعتقد الّا بالانسان وجمال جسده العاري ، وشهواته الحلوة الطيبة ، واسراره الغامضة .

قلبُ الصوفيّ تجمّدت في عروقه فكرة البعث والجحيم ؛ وقلب جبران ترقرقت في خلايا نظريّته الحرية المطلقة والاباحيّة الغير المحتاجة الى ثواب او عقاب .

قلب الصوفيّ جافٌ متقشّف ؛ وقلب جبران تتدفّق منه عصارة الشباب والتمتع بالملذّات العالمية والفرح والطرب والفن.

قلب الصوفي خزفٌ عتيق ؛ وقلب جبران بلّور عصري.

فيجب ان لا يُقال ، والحالة هذه ، انّ لجبران علاقة بجوهر الاديان السماوية القديمة من روحيّة وصوفيّة ؛ لانّ جبران لا يرضى لنفسه الّا دينه الجسديّ الذي بشّر به في العالم العصري فلاقاه ابناء هذا العالم الجديد ريحانةً فتّانةً وافقت ميولهم بروحها الدنيوية وانطبقت على اذواقهم بصيغتها الرمزيّة الموجزة ، ولهجتها التبشيريّة . ولنفتح سفر البشارة الجبرانيّة ، ولنقرأ مواعظ المصطفى المختار نجد حبه الجسد العاري في حديثه عن الثياب اذ يقول:

« انّ ثيابكم تحجب الكثير من جمالكم ، ولكنها لا تستر غير الجميل.

« ومع أنكم تبحثون بثيابكم عن حرّية الستر والانفراد ، فانها تقيدكم وتستعبدكم.

« ويا ليت في وسعكم ان تستقبلوا الشمس والريح بثياب بشرتكم عوضاً عن ثياب مصانعكم . » (١

وما من شيء في مواضيع النبي الّا وله صلةٌ بالقلب والجسد او ما يعود الى رياضتها ، كما سنرى.

---

١) النبي ، ص ٤٦.

(لها بقية)